

احتلال مدينة الجزائر 5 جويلية 1830

رواية جديدة من يومية القنصلية البريطانية بالجزائر

The Occupation of Algiers, July 5, 1830. A new account from the diary of the British Consulate in Algiers

جامعة غليزان – (الجزائر)

تاريخ

محمد الأمين بوحلوقة*

Majrit711@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/12/31

تاريخ القبول: 2024/12/15

تاريخ الإرسال: 2024/07/11

ملخص:

هناك العديد من الدراسات الفرنسية التي تناولت موضوع احتلال الجزائر سنة 1830م، ولكنني لا أظن أن هناك دراسات عرضت الموضوع من وجهة نظر ثانية، وأقصد هنا روايات الدول المحايدة التي أوردت تفاصيل مجهولة عن تلك الأحداث الدرامية التي سبقت سقوط النظام التركي في الجزائر، ولعل من أهم المصادر من هذا النوع يومية القنصلية البريطانية التي استطاعت أن تحفظ كل مراحل احتلال مدينة الجزائر منذ حادثة المروحة حتى استسلام المدينة في صيف 1830م، ولذلك فإن هذه الدراسة تقدم لأول مرة تفاصيل وأحداث جديدة عن انهيار السلطة التركية وما تلا ذلك من أحداث غيرت الجزائر وأنتجت أزمة الاستيطان والاحتلال التي لم تستطع الجزائر أن تتعافى منها إلى يومنا هذا، حتى على مستوى الذاكرة والهوية والتاريخ.

الكلمات المفتاحية: الجزائر العثمانية؛ الاحتلال الفرنسي؛ بريطانيا؛ اليومية القنصلية؛ الأتراك.

Abstract:

There are many French studies that have dealt with the subject of the occupation of Algeria in 1830 AD, but I do not think that there are studies that presented the subject from the point of view of a third party. I mean here the narratives of neutral states that reported unknown details about those dramatic events that preceded the fall of the Turkish regime in Algeria. Perhaps one of the most important sources of this nature is the British consular diary, which was able to preserve all the stages of the occupation of the city of Algiers from the fly-swat incident until the surrender of the city in the summer of 1830. Therefore, this study presents, for the first time, new details and events about the collapse of the Turkish authority and the

* المؤلف المُرسَل: Majrit711@gmail.com

events that followed that changed Algeria and produced the crisis of settlement and occupation, from which Algeria has not been able to recover to this day, even at the level of memory, identity and history.

Keywords: Ottoman Algeria, French occupation, Britain, Consular Daily, Turks.

1. مقدمة:

لقد مثلت السنوات الثلاث التي سبقت سقوط النظام العثماني في الجزائر المرحلة التمهيدية للاحتلال الفرنسي، حيث لم يتمكن الداي وحاشيته خلالها من إيجاد مخرج سياسي للأزمة التي حلت بالسلطة، خاصة مع تفاقم المشاكل الداخلية بين السلطة والرعية، أو ما يسمى بالقطيعة الكاملة، والتي قادها زعماء الصوفية.

بدءًا من 6 ديسمبر 1827، خلف القنصل البريطاني روبرت وليام سان جون السيد توماس على رأس القنصلية البريطانية في الجزائر. وتزامن ذلك مع بداية الحصار الفرنسي للجزائر، خاصة مع التطورات التي حدثت بعد إساءة الداي حسين للقنصل الفرنسي. كان الطرف البريطاني يتابع عن كثب وبشكل مستمر تطورات الوضع المتوتر بين السلطة في الجزائر والفرنسيين، ولعل نفوذ القنصل سان جون داخل نظام الحكم في الجزائر (كان مقربًا من الداي حسين) سمح له بتسجيل كل الأحداث التي جرت على أعلى مستوى من هرم السلطة. وعلى مدى ثلاث سنوات وكان ذلك في يومية القنصلية البريطانية، سجل فيها القناصل كل ما جرى في الجزائر، لينقلوها بعد ذلك إلى وزارة الخارجية، حيث تستفيد منها بريطانيا في صياغة سياستها مع الجزائر.

ولهذا السبب تعتبر اليومية القنصلية البريطانية مادة أرشيفية لا تقدر بثمن، وذلك لقيمة المعلومات السرية التي تحتويها عن الجزائر، وخاصة في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الجزائر. فحاولت أن أتحرى أهم ما ورد فيها عن آخر سنة من الجزائر العثمانية، وما هي التفاصيل الحصرية التي روت بها، وكيف كانت وجهة النظر البريطانية تجاه الاحتلال الفرنسي. وكل هذا استناداً إلى هذه المادة الأرشيفية المهمة.

2. تصدع سلطة الترك وبداية التفكك:

لم يكن عيداً عادياً بالنسبة لداي الجزائر حسين وهو الذي تعود على تقديم عروض المصارعة أمام القناصل الأوروبيين ليختمها بعد ذلك بتقديم الحلويات التركية التي اشتهر

بصناعتها الحلواجي بالقصبة. فبعد أن قدم جميع القناصل تبريكاتهم بمناسبة العيد تقدم القنصل الفرنسي نحو الداوي وهو لا يعلم أنه بعد بروتوكول التهنئة سيتلقى لطمة بمروحية الداوي، أين ستتخذ العلاقات الجزائرية الفرنسية منعطفًا خطيرًا لم يسبق وأن وصلت إليه. عند الرجوع إلى الرسالة السريّة التي بعثها القنصل البريطاني "سان جون" إلى وزارة الخارجية بلندن، والتي احتوت على تفاصيل عن تلك الحادثة بشكل دقيق، وما يدعم رواية القنصل البريطاني رسالة سرية أخرى أرسلها قنصل البرتغال يسرد فيها تفاصيل الواقعة، وكلا الرسالتين تتفقان على أنّ الشجار الذي حصل بين الداوي وقنصل فرنسا كان بسبب نقطتين: الأولى إجراءات استغلال حصن القالة أو الباستيون والثانية أعمال تجارية ليهودي مفلس يدعى بكري كما وصفه القنصل البريطاني. وفي نهاية الأمر أدى ذلك إلى نزاع دبلوماسي بدء يتطور شيئًا فشيئًا إلى توتر عسكري أخذ البلد إلى الهاوية.

في جو من التوتر العسكري والدبلوماسي بين سلطة الأتراك وفرنسا، كان القنصل "سان جون" يكتب كلّ الأحداث والتفاصيل التي كانت تصله عبر مخبريه المنتشرين في مدينة الجزائر وفي قصر الداوي، لهذا ما تعرضه اليومية الخاصة بالقنصلية البريطانية عن آخر عام من عُمر سلطة الأتراك بالجزائر، والأحداث التي تلت إنهيار النظام هي بمثابة نص أرشيفي لا يقدر بثمن. لقد حاولت أن أقصر على سنة واحدة قبل سقوط مدينة الجزائر، وهذا من جوان 1829 م حيث تبدأ اليومية بذكر تفاصيل مثيرة عن مجريات الأحداث بداية من 17 جوان من تلك السنة، إذ "حوالي الساعة التاسعة من صباح اليوم، أحضر بعض العرب سجينًا فرنسيًا ورؤوس العديد من البحارة الفرنسيين الآخرين، الذين نزلوا على هذا الساحل على بعد حوالي ثلاثين ميلًا شرقًا، من ستة قوارب أرسلتها الفرقاطتان الفرنسيتان "إيفيجيني" و"دوق دي بيري"، لإيقاف قارب محلي فارغ يحوي ستة من الجزائريين. بعد أن نزل الأخيرون بقاربهم فرّوا إلى الريف وعرفوا أن الفرنسيين قد نزلوا لمطاردتهم، فجمعوا عددًا من القبائل الذين كانوا يحصدون القمح بالقرب من المكان، فهاجموا الفرنسيين الذين كانوا ستين رجلًا فقتلوا ثلاثة وعشرون وأسر واحد." (Playfair, 1884,p310) وهنا التزم "سان جون" بأن نسب الرواية للعرب فقال: "هذه هي رواية العرب عن الحدث" (Playfair, 1884,p311).

تتقدم اليومية لتسرد تفاصيل من داخل قصر الداوي عن ما جرى بعد هذا الهجوم

وكيف تعامل الداى معه، حيث عملت السلطة على تحفيز الناس بالمكافأة المالية عن كل رأس فرنسي يتم جلبه إلى قصر الداى بمبلغ 100 دولار و200 دولا عن الأسير، وهو يعكس طابع الإغراء الذي اتبعه النظام.

3. حلول فرنسية وجزائرية لتجنب الحرب الشاملة.

لا أظن أن النظام في الجزائر كان يعي حجم الأزمة الذي أوجد نفسها فيها، كما أن الأتراك لم يكونوا على دراية تامة بالسياسات التي كانت تتغير بسرعة في البحر المتوسط وصعود قوى جديدة تحاول كسب نفوذ جديد في المنطقة، ففرنسا رأت أن الفرصة مناسبة لتحقيق مكاسب توسعية في شمال إفريقيا خاصة وأن البريطانيين لم تظهر لهم أي نية في التوسع وكسب نفوذ جديد في غرب المتوسط. بالعودة إلى اليومية البريطانية نلاحظ أن الفرنسيين حاولوا استعمال الحل الدبلوماسي قبل الخيار العسكري، ففي 30 جويلية وصلت ورست في الخليج هذا المساء سفينة الخط الفرنسية بروفانس، بقيادة السيد دي لا بريتونيير، مع فرقاطة، وكلاهما تحمل أعلام الهدنة. بعد نزول العميد البحري دي لا بريتونيير وتوجهه إلى قصر الداى، أجرى مقابلة طويلة مع الداى. (Playfair, 1884,p313) لكن يبدو أن نتيجة المفاوضات لم تصل إلى حل يرضي الطرف الجزائري والفرنسي والذي أصرّ على المفاوضات، وهو ما تسرده اليومية حيث أنه بتاريخ 2 أوت أجرى العميد البحري الفرنسي مقابلة أخرى مع الداى اليوم، ولم تصل المفاوضات إلى أي نتيجة مرضية، فعاد إلى متن سفينته مباشرة بعد مغادرة القصر. (Playfair, 1884,p313) لم يقبل الداى بالعرض الفرنسي لإنهاء الأزمة وهو أن يرسل الداى سفيراً إلى فرنسا، وعند إبرام السلام يجب أن يعيد مصائد المرجان في بونا إلى الشركة الفرنسية؛ وكلا الشرطين رفضهما الداى بشدة. (Playfair, 1884,p313) لو قبل الداى شروط الفرنسيين هل كان من الممكن تجنب الحرب وإطالة عمر النظام؟ بالطبع عند الوقوف على الشروط المعروضة من طرف الفرنسيين يبدو أنها معقولة وكان من الممكن قبلوها لو كان هنالك وفد جزائري عرف كيف يصنع المرونة الدبلوماسية ويجد حلاً يرضي الجزائريين والفرنسيين، لكن تعنت وسوء الإدارة والغرور الزائد للداى جعل من المفاوضات تفشل.

أمام هذا التصعيد الخطير من طرف الجزائريين تخبرنا اليومية أن هذا الأمر سيدفع الفرنسيين على الأرجح إلى شن هجوم على الجزائر العاصمة، كما قدم القنصل العام طلباً رسمياً إلى قائد سفينة صاحب الجلالة بيلوروس لتوفر له الحماية لعائلته في حالة وقوع

مثل هذا الهجوم. (Playfair, 1884)

4. محاولة الانقلاب والمأزق العسكري للنظام

بعد فشل كل الحلول الدبلوماسية قرر الفرنسيون الإعداد للهجوم على مدينة الجزائر قلب نظام الترك، وقد استعان الفريق المكلف بعملية الإنزال البحري بوثائق وخرائط تعود إلى بدايات القرن 19م، عندما حاول نابليون الهجوم على الجزائر بعد خسارة عقد استغلال حصن الباستيون والتجارة الحصرية مع بونا أمام البريطانيين سنة 1807، لهذا مثلت تلك الوثائق بالنسبة لوزارة الحربية جهداً ثميناً جاء وقت استغلاله، في المقابل لم يتخذ النظام أي إجراءات الأمر الذي عكس هشاشة منظومة حكم الأتراك.

مع بداية سنة 1830 لاح في الأفق أن الفرنسيين عازمون على شن هجوم ساحق ضد الجزائر، لهذا كان على القوات الفرنسية رسم خطة مخادعة توحى بأنهم يريدون الإنزال من الجهة الشرقية لمدينة الجزائر، وهو ما تخبرنا به اليومية القنصلية، إذ بتاريخ 17 ماي 1830 تلقى الداوي معلومات استخباراتية مساء أمس تفيد بفقدان سفينتين حربيتين فرنسيتين على بعد حوالي خمسين ميلاً شرق الجزائر العاصمة. (Playfair, 1884,p314) لكن خسارة الفرنسيين كانت كبيرة حيث فقد أكثر من خمسة وثمانين بحاراً حياتهم كما تم أسر قبطان أحد السفينتين وهذا يوم 20 ماي (Playfair, 1884,p314).

بدأ الفرنسيون حرباً نفسية ضد النظام وهذا عن طريق توزيع منشورات بعربية ركيكة احتوت على بعض الألفاظ الدارجة وتم توزيعها على السكان قصد إحداث تصدع بين النظام والسكان، وهو ما وثقته اليومية ففي 23 ماي أرسل الداوي مترجمه إلى القنصل العام ليُطلع على إعلان مكتوب باللغة العربية، قامت الحكومة الفرنسية بتوزيعه على العرب في البلاد. (Playfair, 1884,p315)

في 1 جوان تخبرنا اليومية البريطانية عن حدث جرى داخل منظومة الحكم وهو اكتشاف مؤامرة لعزل الداوي، ويبدو أنه آخر الحلول من بعض الوطنيين الذي رأوا أن البلد على شفا الهاوية، لهذا كان خيار الانقلاب لإنقاذ البلد من الهجوم الفرنسي الوشيك، لكن سيفشل الانقلاب ليتم القبض على المنفذين فأعدم منهم ثلاثة على الفور ونفي بعضهم وفر البعض الآخر. (Playfair, 1884,p315)

ربما من الإجراءات التي اتخذها النظام آنذاك الإستعانة بكل قوات البايلاكات لصدها هجوم الفرنسيين، وفي هذا نجد في اليومية أنه بعدما أرسل الداوي يستدعي قوات بايلك

الشرق الذي وصل بتاريخ 7 جوان ومعه قوات لمحاربة الفرنسيين (Playfair, 1884,p315). كذلك تذكر اليومية أنه بتاريخ 9 جوان وصل باي التيطري مع قوات من الداخل. (Playfair, 1884,p315) لكن عندما نطالع ما جاء في اليومية عن باي الغرب وقواته نجد أنه تعذر عن الحضور بنفسه بعدما أرسل خليفته مع بعض القوات وهذا بسبب تمرد العرب في بايلكه، (Playfair, 1884,p315) ولعل ما نقرأه من خلال هذا أن بايلك الغرب كان يعيش في تلك الفترة تمرد بعض رجال الطريقة الدرقاوية، خاصة وأن المنطقة كانت معقل للطريقة بعدما شهدته من انتفاضة سابقة.

5. تقدم القوات الفرنسية نحو مدينة الجزائر وانهايار مقاومة الترك.

كان الفرنسيون يدركون أن الطقس في شهر جوان ملائم جدا لعملية الإنزال المخطط له سلفا، لهذا في 13 جوان سيصل الأسطول الفرنسي، وبعد مروره قبالة المدينة اتجه نحو خليج سيدي فرج حيث رسى بعدها بعد الظهر، (Playfair, 1884,p315) هذا هو ما سجلته اليومية القنصلية وهي صورة توحى بأريحية وسهولة تامة لعملية الرسو في سيدي فرج، ولعل نتيجة ذلك غياب كلي وتام لأي مقاومة للبحرية الجزائرية. بعدها بيوم أي في 14 جوان سيقوم الجيش الفرنسي بعملية الإنزال في سيدي فرج دون أي مقاومة تذكر وبدأ بعدها على الفور ببناء التحصينات. (Playfair, 1884,p315) هذه الرواية تدل أيضا إلى غياب خطة عسكرية لصعد الإنزال الفرنسي ما يظهر عجز النظام وفشله في التعامل مع حدث سيكون له عواقب وخيمة. ربما ما يؤكد هذه النتيجة هو ما حدث عندما تعرض العرب للهزيمة على يد الفرنسيين بعد وقت قصير من نزولهم... فقد طرد العديد منهم مرة أخرى، بعد أن جاءوا بدون أسلحة والتي لم توفرها الحكومة بالإضافة الى المؤن. (Playfair, 1884,p315)

في صباح 16 جوان سيبدأ العرب في الهجوم على المعسكر الفرنسي لكن مدافع الفرنسيين صدتهم، بعدها بيوم وصل أعداد من العرب والقبائل من الجبال لمهاجمة الفرنسيين وكان عدد يبلغ 26 ألفا. أطلقوا النار بكثافة طوال اليوم على الفرنسيين، الذين كانوا يردّون على نيران المدافع من حين لآخر فقط. (Playfair, 1884,p316) في يوم 19 جوان ستحدث الكارثة التي دلت على سوء التخطيط وأن نظام الترك مهالك، حيث تذكر اليومية القنصلية أنه جرت معركة بين الجيشين. وهزم الفرنسيون الجزائريين الذين اضطروا إلى التراجع وتركوا وراءهم كامل معسكرهم الذي استولى عليه الفرنسيون

بالإضافة إلى الصندوق العسكري للأغا و200 خروف و600 ثور وأشياء أخرى كثيرة أيضاً. (Playfair, 1884,p316) بعد هذا التقهقر عاد الآغا إلى مدينة الجزائر، وفرّ العرب في كل الاتجاهات وزعموا أن الآغا رفض أن يعطيهم البارود ليقاتلوا به. كما عاد كوجيا كافالو، أو الرجل الثاني في القيادة، إلى مدينة الجزائر برفقة الآغا. (Playfair, 1884,p316)

فعلا هي كارثة حلت بالمقاتلين الجزائريين الذين كانوا يواجهون جيشا فرنسيا منظما له خبرة كبيرة في الحروب، لهذا لم يستطع الجزائريون الصمود أمام إنضباط وصلابة الكتائب الفرنسية، فاليومية القنصلية تذكر أنه لغاية 20 جوان كان الفرنسيون لا يزالون في موقعهم الذي احتلوه بالأمس في سطاوالي، وشكلوا معسكرهم هناك. (Playfair, 1884,p316) لكن الأمر الذي ينبئ عن مدى الفوضى التي انتشرت بعد هزيمة الجزائريين هو ما سرده اليومية البريطانية، إذ تقول اجتاحت العرب والقبائل البلاد، ونهبوا كل المنازل التي أمكنهم دخولها، وأكلوا كل الفاكهة في الحدائق، وكانوا يصرخون بأنهم سيموتون من الجوع. (Playfair, 1884,p316)

لغاية 23 جوان كانت مجريات المعركة بين الجزائريين والفرنسيين تنذر بأن كفة الغلبة لصالح الفرنسيين، رغم أن الجزائريين شكلوا ثلاثة أو أربعة معسكرات صغيرة في اتجاهات مختلفة، وجعلوا القيادة بيد باي التيطري وباي قسنطينة، بالإضافة إلى تزويد المقاتلين بالخيام رغم قلتها ووصول عدد كبير من العرب والقبائل. (Playfair, 1884,p317) سيشهد يوم 24 قتالا عنيفا، حيث أن اليومية سجلت لنا ما جرى في ذلك اليوم "دارت اليوم معارك كثيرة، وتعرض الجزائريون للهزيمة مرارا وتكرارا على يد الفرنسيين، الذين تقدموا بشكل كبير نحو المدينة، واستولوا على عدة منازل وملأوها بالجنود ورفعوا العلم الفرنسي عليها. أرسل الجزائريون جميع خيامهم إلى المدينة، وتشتتوا في اتجاهات عديدة (Playfair, 1884,p317). انها صورة مأساوية عن مآلات الأوضاع في مدينة الجزائر، صورة نقرأ فيها أن منظومة الحكم لم تمتلك حتى جيشا يدافع عن البلد، إنهم الترك الذين حكموا أكثر من ثلاثة قرون الجزائر ها هم يتقهقرون أمام فرنسا الإمبراطورية.

في خضم تلك الإشتباكات كانت الواجهة البحرية لمدينة الجزائر نشطة، فقد استقبلت بعض السفن الأوروبية منها سفن حربية إسبانية والتي لم تستطع الاقتراب بسبب البطاريات كما وصلت العميد البريطانية "فيريت" أيضاً إلى الخليج هذا المساء، لكنها لم تقترب بما يكفي لاستهدافها. (Playfair, 1884,p317) كما تسجل اليومية وصول تعزيزات انجليزية

أخرى متمثلة في زورق انجليزي تم اجباره على الخروج من الخليج بسبب النيران. (Playfair, 1884,p317) هنا يجب أن نتوقف عند هذا الخبر المهم الذي سجلته اليومية، ونطرح سؤالاً مهماً هو ما سبب قدوم سفينة الحرب البريطانية "فيريت" في هذا الظرف الحرج؟ لعل السبب وراء وجود سفينة حرب بريطانية في هذا التوقيت هو وقوف البريطانيين على مجريات الأحداث في الجزائر، ورسالة إلى الفرنسيين بأن ما يجري على سواحل شمال افريقيا يهم البريطانيين كذلك، وأنه لا يمكن إجراء أي توسيع في النفوذ الفرنسي في المتوسط إلا تحت مراقبة بريطانيا.

يوم 27 جوان تخبرنا اليومية القنصلية أن معسكر الجزائريين حدث فيه تجاوزات من طرف المقاومين الجزائريين، وأن قضية الدفاع عن مدينة الجزائر لم تعد أولوية، حيث نهب العرب والقبائل عددًا كبيرًا من منازل اليهود، وبعد شكوى قدمت بسبب تلك الأفعال إلى باي التيطري. (Playfair, 1884,p318) وجد الأخير نفسه عاجزاً عن اتخاذ أي إجراء ضد الجناة وقال إن هذا قد يحرضهم على العودة إلى جبالهم إذا عاقب أي واحد الآن. (Playfair, 1884,p318)

لم تتغير المعطيات الميدانية على الأرض، حيث بقي الفرنسيون حيث كانوا كما شن القبائل هجوماً طفيفاً عليهم وفقدوا حوالي 400 رجلاً. (Playfair, 1884,p318) في وقت مبكر من صباح 29 جوان تقدم الفرنسيون بسرعة واستولوا على جميع التلال التي تسيطر على المدينة حيث لم يواجهوا أي مقاومة، كما قرّر جميع الجزائريين. (Playfair, 1884,p318)

6. وساطة بريطانية، استسلام وتهجير قصري.

كانت أولى بدايات المفاوضات بين القائد العام للقوات الفرنسية والداي عندما أرسل القائد العام الفرنسي ضابطاً إلى القنصل العام، يطلب منه نقل رسالة تهديدية للداي، لكن القنصل العام رفض ذلك وهذا لسلامة السجناء الفرنسيين الموجودين في مدينة الجزائر. في 3 جويلية وعند الساعة الثانية بعد الظهر تجدد قصف مدينة الجزائر وهذا بعد أن دخل الأسطول الفرنسي بأكمله بقيادة نائب الأدميرال دوبيرييه وهاجم حصون المدينة الواقعة إلى الغرب منها. (Playfair, 1884,p319)

في يوم 4 جويلية ستتخذ الأحداث منعطفاً حاسماً وخطيراً وهي التي ستقرر مصير نظام الترك، حيث وبعد أن فتح الفرنسيون نيرانهم على حصن الإمبراطور واستمر إطلاق النار

حتى الساعة العاشرة، خرج المقاومون الجزائريون منه وأشعلوا النار في مخزن البارود. فأظهر الانفجار منظرا رائعا وبعد دقائق قليلة دخلت القوات الفرنسية ورفعت راياتها على بقايا المحطمة. (Playfair, 1884,p319) خسارة هذا الموقع المهم جعل من أعلى سلطة في النظام وهو الداى يقرر بدايات المفاوضات مع الفرنسيين بوساطة انجليزية، إذ أرسل الداى في طلب القنصل العام وطلب منه الذهاب إلى القائد العام الفرنسي لمعرفة الشروط التي يريدها، (Playfair, 1884,p319) بعد ذلك سيجيب قائد الحملة دي بورمون بأنه يشترط أن تستسلم المدينة غداً الساعة العاشرة صباحاً واعداء في نفس الوقت بسلامة الداى وممتلكاته، وكذلك سلامة جميع سكان المدينة. وقد تم تقديم هذا الرد كتابياً وأرسل إلى الداى بواسطة سكرتيه الخاص يرافقه القنصل. (Playfair, 1884, p319)

في يوم 5 جويلية أرسل الداى في طلب القنصل مرة أخرى لمعرفة ما إذا كان يمكنه الوثوق فعلاً في وعد الجنرال الفرنسي بسلامته وسلامة سكان المدينة، وقال إنه في هذه الحالة مستعد لتسليم المدينة والتوقيع على الاتفاقية التي عرضها عليه القائد العام. (Playfair, 1884,p319) بالطبع أكد الوسيط البريطاني سان جون إستعداده لإيصال موافقة الداى وذلك عن طريق وضع ختم سموه على الاتفاقية، وطلب الداى من القنصل أن يكون حاملها إلى الجنرال الفرنسي، متوسلاً إليه في الوقت نفسه أن يحصل من القائد العام على ساعتين إضافيتين ليتمكن من نقل عائلته من القصر إلى منزله الخاص (Playfair, 1884,p320). بالطبع استجاب القنصل لرغبة الداى، وبعد الحصول على التأخير الذي طلبه الداى، تم إيقاف زحف القوات الفرنسية حتى الساعة الواحدة ظهراً، بعدها زحفوا نحو المدينة واستولوا على قصر الداى وجميع الحصون. (Playfair, 1884,p320) لعل الكثير من المصادر الإنجليزية وخاصة اليومية البريطانية وثقت أحداثاً دامية حدثت بعد أن سمح الفرنسيون للكتائب بنهب وسلب واغتصاب مدينة الجزائر، والدليل ما سردته اليومية بأن القنصل خشي من احتمال وقوع بعض الأعمال الوحشية ضد السجناء الفرنسيين في حالة الفوضى، فحصل على إطلاق سراحهم من الداى قبل مغادرته القصر، وأرسلهم إلى القنصلية البريطانية، وأخذ معه إلى المعسكر الفرنسي قباطنة المركبتين الحرييتين اللتين فقدتا على الساحل. (Playfair, 1884,p320)

بعد دخول الفرنسيين إلى المدينة أرسل الداى يوم 6 جويلية في طلب القنصل العام هذا الصباح وأعرب عن رغبته في مغادرة هذه البلاد، وقال إنه يعتمد عليه كثيراً للحصول على

رأيه في ظل الظروف الحالية. وبعد الحديث معه طلب سموه من القنصل الذهاب إلى الجنرال الفرنسي وترتيب الأمور معه بشأن وسيلة نقل، معرباً عن رغبته في الحصول على سفينة لنقله إلى مالطا. تصرف القنصل حسب الطلب ونفذ طلب الداي، والذي وافق عليها القائد العام بطيب خاطر، وأعلن أنه سيضع سفينة خط تحت تصرف الداي لنقله إلى أي مكان يرغب في الذهاب إليه. (Playfair, 1884, p320) بعد ذلك سيتقابل الداي حسين وقائد الحملة الفرنسية دي بورمون أول مرة منذ بدء الهجوم على المدينة، إذ في 7 جويلية قام الداي بزيارة القائد العام الفرنسي الذي أرسل ليخبره برغبته في رؤيته. فتم إرسال حرس شرف وفرقة موسيقية لمرافقته إلى القصر، حيث تم استقباله بكل تكريم ولباقة، واستعاد أسلحته وجميع ممتلكاته التي تركها في القصر. وقد أرسل رسالة هذا المساء إلى القنصل العام يقول فيها إنه غير رأيه بشأن الذهاب إلى مالطا، وأنه قرر الذهاب إلى ليفورنو. (Playfair, 1884, p320)

هل من الممكن أن نقرأ أن تغيير رأي الداي لوجهته من مالطا إلى ليفورنو كان عبر ضغوط فرنسية بعد الإجتماع مع قائد الحملة دي بورمون؟ من المحتمل أن الداي تعرض لضغوط غير مباشرة وهي أن الفرنسيين أخبروه أنه لا توجد سفينة قادرة على نقله إلى مالطا، إضافة لذلك ربما كان الفرنسيون يرون أن ذهاب الداي إلى مدينة ايطالية أحسن من ذهابه إلى مالطا وهي قاعدة الأسطول الإنجليزي آنذاك، فخوف الفرنسيين كان واضحاً من أي مناورة انجليزية مع الداي غير محسوبة النتائج لهذا جاء التغير المفاجئ في وجهة الداي.

في تلك الظروف الصعبة تعطلت كل أشكال الحياة في مدينة الجزائر، وأصبحت شبه خاوية من سكانها الذين فروا نحو داخل البلاد، كما أصبح الجنود الفرنسيون الوحيدون الذين يمشون في أزقة المدينة الضيقة والمظلمة وتحت ضربات آخر المقاومين اليائسين، لهذا كان على القائد العام أن يصدر بياناً يتمنى فيه من السكان تسهيل الأمور وفتح متاجرهم، وإخبارهم أنهم سيستمررون في تحكيم شريعتهم كما أمرهم جميعاً بالتخلي عن أسلحتهم. (Playfair, 1884, p321)

في 10 جويلية سيتم تعيين لجنة بلدية مكونة من سبعة من السكان الرئيسيين للمدينة من قبل القائد الأعلى، ويساعدها ضابط فرنسي. (Playfair, 1884, p321) وكان الهدف منها هو تسيير شؤون المدينة ريثما تجد سلطات الاحتلال الخطة المناسبة لتنظيم الشؤون

العامة، خاصة وأن تبعات سقوط نظام الترك كان في ظاهرها في الانفلات العام الذي طغى على المدينة. بالرجوع إلى خطة ترحيل الأتراك من مدينة الجزائر تذكر اليومية القنصلية أنه تم إركاب جميع الأتراك غير المتزوجين هذا الصباح إلى مدينة سميرنا ومنح 5 دولارات لكل منهم، كما أرسل القائد العام رسالة عامة إلى كافة القناصل الأوروبيين بالجزائر العاصمة يخبرهم بذلك. (Playfair, 1884,p321)

تذكر اليومية القنصلية أنه في 11 جويلية أبحر الداوي مع كل عائلته وحاشيته وممتلكاته على متن فرقاطة فرنسية إلى نابولي، وهو المكان الذي اختاره أخيراً لإقامته، كما رحل معه آغا ووزير البحرية وكلاهما صهره. (Playfair, 1884,p313,p321) تكمل اليومية البريطانية سردها لما وقع بعد رحيل الداوي وحاشيته وقد تطرقت لموضوع مهم جداً وهو خزينة الإيالة، أو ما يعرف بكنز القصبة، حيث جاء أنه بتاريخ 12 جويلية صرح القائد العام للقوات الفرنسية أن الكنز الذي تم العثور عليه في الجزائر العاصمة يكفي تماماً لدفع جميع نفقات الحرب وترك ربح جيد للجيش والأمة. (Playfair, 1884,p321) وفي هذا الموضوع يعلق القنصل البريطاني سان جون في رسالة منفصلة سرية أرسلها إلى وزارة الخارجية بلندن أن قيمة ما وجده الفرنسيون من أموال يقدر بـ 150 مليون فرنك. (Playfair, 1884,p321)

مع نهاية جويلية ستستكمل عملية ترحيل جميع الأتراك الذين كان لهم مناصب في نظام الترك، حيث أنه في 29 جويلية تم استدعاء جميع الأتراك الذين تولوا مناصباً في ظل النظام السابق إلى القصر اليوم، ومن هناك ودون أي إشعار مسبق تم إرسالهم تحت حراسة من الجنود وصعدوا على متن سفينة حربية فرنسية. كما تم إرسال الخزناجي وطرده بنفس الطريقة. (Playfair, 1884,p321) بعد ذلك أكمل الفرنسيون عملية ترحيل الأتراك التي بدأت سابقاً ففي 30 جويلية أمر جميع الأتراك دون استثناء الذين بقوا في الجزائر العاصمة، فصعدوا على الساعة الثانية عشرة على متن السفن الحربية الفرنسية التي كانت جاهزة لاستقبالهم. (Playfair, 1884,p322)

خاتمة:

- لعل ما يمكن الخروج به كنتائج من هذه الدراسة هي:
- نفذت البحرية الفرنسية تكتيكات حربية مخادعة حاولت من خلالها ايهام السلطات في الجزائر أن الإنزال البحري سيتم على الجهة الشرقية وهو ما نلمسه في مقاومة جميع تلك التحركات وتصاعد وتيرة أسر البحارة الفرنسيين.
 - يظهر من خلال ما سردته اليومية القنصلية أن الفرنسيين كانوا يريدون المفاوضات قبل أي عمل حربي لكن تعنت الداى وتصلب رأيه أدى إلى إفشال كل الحلول الدبلوماسية
 - مع تصاعد احتمال غزو مدينة الجزائر كان بعض الوطنيين يرون أن الداى يمثل عقبة أمام التوصل إلى حل دبلوماسي يرضي الفرنسيين ويجنب الجزائر الاحتلال، لهذا أخبرتنا اليومية البريطانية عن محاولة انقلاب داخل النظام لكنها فشلت ما أدى إلى بقاء الداى في منصبه وتعثر الحلول الدبلوماسية.
 - أظهرت اليومية القنصلية مدى ضعف نظام الترك وأنه كان هشاً جداً، لدرجة أنه لم يستطع المناورة وفقد كل الحول التي جعلته يتهاوى بسرعة.
 - على حسب اليومية البريطانية يظهر أن الفرنسيين مارسوا حرباً نفسياً ضد نظام الترك وهذا عن طريق توزيع المنشورات التي دعت السكان إلى عدم محاربتهم وأن الفرنسيين جاؤوا للإطاحة بالداى ولا يريدون شرا بالسكان وهو عكس ما حدث بعد اجتياح مدينة الجزائر.
 - لعل من بين ما يمكن إستنتاجه هو أن الجزائر لم تكن تمتلك أي قطعة بحرية تدافع عن مدينة الجزائر، ودليل ذلك هو تقدم الأسطول الفرنسي نحو سيدي فرج وعملية الإنزال السهلة التي جرت ما عدا بعض المناوشات الخفيفة بعد الإنزال.
 - فشلت كل محاولات صد زحف القوات الفرنسية نحو مدينة الجزائر وهذا بسبب ضعف التسليح، حيث لم يكن لدى نظام الترك أي خطة أو جيش يواجه الجيش الفرنسي النظامي والقوي، وهو ما ظهر في انهزام المقاومين الجزائريين وتقهرهم بشكل سريع.
 - أظهرت لنا اليومية القنصلية مدى الفوضى التي أحدثها المقاومون الجزائريون بعدما نهبوا بيوت القنصليات الفرنسية وكل المزارع التي وجدوها أمامها لدرجة أن باي التيطري عجز عن إيقافهم خوفاً من رجوعهم إلى مناطقهم وهو دليل على عدم وجود روح وطنية وقطيعة بين السكان والترك.

- كان سقوط مدينة الجزائر سريعا، خاصة وأن داي الجزائر إستسلم بعدما ضمن سلامته وسلامة ممتلكاته وحاشيته، وهو ما يظهر بأنه كان ينظر لنفسه مجرد موظف تركي، عكس الوطنيين الذين بدؤوا في قتال الاحتلال منذ دخوله للجزائر.
- طبق الفرنسيون سياسة النفي منذ الايام الأولى للاحتلال حيث رحلوا كل الاتراك والعائلات التركية خوفا من اي تمرد قد يقودونه، وحاولوا قد الإمكان ايجاد بدائل تنظيمية عن نظام الترك الزائل، وهذا عن طريق تكوين لجنة من وجهاء المدينة تسير الشؤون العامة.

لأزالت اليومية القنصلية البريطانية تمثل مادة أرشيفية مهمة لمعرفة تفاصيل جديدة عن السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي، خاصة وأن القنصل البريطاني بقي يرأسل وزارة الخارجية بلندن لغاية نهاية خدمته.

المصادر والمراجع:

Sir Robert Lambert Playfair.1884. The Scourge of Christendom: Annals of British Relations with Algiers Prior to the French Conquest..london. Smith, Elder & Company,